الرأى والعقيدة

فرق كبير بين أن ترى الرأى وأن تعتقدَه ؛ إذا رأيت الرأى فقد أدخلته فى دائرة معلوماتك ، وإذا اعتقدته جرى فى دمك ، وسرى فى مخ عظامك ، وتغلغل إلى أعماق قلبك .

ذو الرأى فيلسوف ، يقول إنى أرى الرأى صوابا وقد يكون فى الواقع باطلا ، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم وقد تقوم الأدلة على عكسه غداً ، وقد أكون مخطئا فيه وقد أكون مصيبا . أما ذو العقيدة فجازم باتٌّ لا شك عنده ولا ظن ، عقيدته هى الحق لا محالة ، هى الحق اليوم وهى الحق غداً ، خرجَتْ عن أن تكون مجالا للدليل ، وسَمَتْ عن معترك الشكوك والظنون .

ذو الرأى فاتر أو بارد ، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة ، وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس ، فقد احترز من قبل بأنّ رأيه صواب يحتمل الخطأ ، ورأْىَ غيره خطأ يحتمل الصواب . وذو العقيدة حار متحمس لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته ؛ هو حرج الصدر ، لهيف القلب ، تتناجى فى صدره الهموم ، أرّق جفنه وأطال ليله تفكيره فى عقيدته ، كيف يعمل لها ، ويدعو إليها ؛ وهو طلق المحيا مُشْرِق الجبين ، إذا أدرك غايته ، أو قارب بغيته .

ذو الرأى سهل أن يتحول ويتحور ، هو عبد الدليل ، أو عبد المصلحة تظهر فى شكل دليل . أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله : « لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أدع هذا الذى جئت به ما تركته » ، وكما يتجلى فى دعاء عمر : « اللهم إيماناً كإيمان العجائز » .

لقد رووا عن « سقراط » أنه قال : « إن الفضيلة هى المعرفة » . وناقشوه

فى رأيه ، وأبانوا خطأه ، واستدلوا بأن العلم قد يكون فى ناحية والعمل فى ناحية . وكثيراً ما رأينا أعرف الناس بمضار الخمر شاربها ، وبمضار القمار لاعبه ؛ ولـكن لو قال سقراط إن الفضيلة هى العقيدة ، لم أعرف وجهاً للرد عليه ؛ فالعقيدة تستتبع العمل على وَفْقها لا محالة — قد ترى أن الـكرم فضيلة ثم تبخل ، والشجاعة خيراً ثم تجبن ؛ ولـكن محال أن تؤمن بالشجاعة والـكرم ، ثم تجبن أو تبخل .

العقيدة حق مشاع بين الناس على السواء ، تجدها فى السُّـذَّج ، وفى الأوساط ، وفى الفلاسفة — أما الرأى فليس إلا للخاصة الذين يعرفون الدليل وأنواعه ، والقياس وأشكاله ؛ والناس يسيرون فى الحياة بعقيدتهم ، أكثر مما يسيرون بآرائهم ؛ والمؤمن يرى بعقيدته ما لا يرى الباحثُ برأيه ، قد مُنح المؤمن من الحواس الباطنة والذوق ما قصر عن إدراكه القياس والدليل .

لقد ضلّ من طلب الإيمان بعلم الكلام وحججه وبراهينه ، فنتيجة ذلك كله عواصف فى الدماغ أقصى غايتها أن تنتج رأيا ؛ أما الإيمان والعقيدة فموطنهما القلب ، ووسائلهما مدّ خيوط بين الأشجار والأزهار والبحار والأنهار وبين قلب الإنسان ؛ ومن أجل هذا كانت « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ » أفعل فى الإيمان من قولهم : « العالم متغير وكل متغير حادث » ؛ فالأول عقيدة والثانى رأى .

الناس إنما يخضعون لذى العقيدة . وليس ذوو الرأى إلا ثرثارين ، عُنوا بظواهر الحجج أكثر مما عنوا بالواقع ، لا يزالون يتجادلون فى آرائهم حتى يأتى ذو العقيدة فيكتسحهم .

قد يجود الرأى ، وقد ينفع ، وقد ينير الظلام ، وقد يُظهر الصواب ؛ ولـكن

لا قيمة لذلك كله ما لم تدعمه العقيدة ، وقلّ أن تؤتَى أمة من نقص فى الرأى ، ولكن أكثر ما تُؤْتَى من ضعف فى العقيدة ، بل قد تؤتى من قِبَل كثرة الآراء أكثر مما تؤتى من قلتها .

الرأى جثة هامدة ، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها ، والرأى كهف مظلم لا ينير حتى تلقِى عليه العقيدة من أشعتها ، والرأى مستنقَع راكد يبيض فوقه البعوض ؛ والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوامّ الوضيعة أن تتولد على سطحه ؛ والرأى سديم يتكوّن ، والعقيدة نجم يتألق .

ذو الرأى يخضع للظالم وللقوى ، لأنه يرى أن للظالم والقوى رأيا كرأيه ؛ ولكنّ ذا العقيدة يأبى الضيم ويمقت الظلم ، لأنه يؤمن أن ما يعتقده من عدل وإباء هو الحق ، ولا حق غيره .

من العقيدة ينبثق نور باطنى يضىء جوانب النفس ، ويبعث فيها القوة والحياة ، يستعذب صاحبها العذاب ، ويستصغر العظائم ، ويستخف بالأهوال ؛ وما المصلحون الصادقون فى كل أمة إلا أصحاب العقائد فيها .

الرأى يخلق المصاعب ، ويضع العقبات ، ويصغى لأمانى الجسد ، ويثير الشبهات ، ويبعث على التردد ؛ والعقيدة تقتحم الأخطار ، وتزلزل الجبال ، وتلفت وجه الدهر ، وتغير سير التاريخ ، وتنسف الشك والتردد ، وتبعث الحزم واليقين ، ولا تسمح إلا لمُرَاد الروح .

ليس ينقص الشرقَ لنهوضه رأى ، ولكن تنقصه العقيدة ؛ فلو منح الشرق عظماء يعتقدون ما يقولون لتغير وجهه وحال حاله ، وأصبح شيئاً آخر .

وبعدُ ، فهل حُرِم الإيمان مهبط الإيمان ؟